﴿في أحسن تقويم﴾ في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية لأعضائه.

ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾.

ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمته تلك الخلقة الحسنة القويمة لسوية أن رددناه أسفل من سفل خلقًا وتركيبًا، يعني: أقبح من قبح صورةً وأشوهه خلقةً وهم أصحاب النار، أو أسفل من سفل من أهل الدركات، أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل. وحسن الصورة والشكل حيث نكسناه في خلقه فقوّس ظهره بعد اعتداله، وابيض شعره بعد سواده، وتشنن جلده وكان بضًا، وكل سمعه وبصره وكانا حديدين، وتغير كل شيء منه فمشيه نليف وصوته خفات وقوته ضعف وشهامته خرف. وقرأ عبد الله: أسفل السافلين.

فإن قُلْتَ: فكيف الاستثناء على المذهبين؟ **قُلْتُ:** هو على الأوّل متصل ظاهر الاتصال، وعلى الثاني منقطع.

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾.

يعني: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمي فلهم ثواب دائم منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم.

فإن قُلْتَ:

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾.

﴿فما يكذبك﴾ من المخاطب به؟ **قُلْتُ:** هو خطاب للإنسان على طريقة الالتفات. أي: فما يجعلك كاذبًا بسبب الدين وإنكاره بعد هذا الدليل. يعني: أنك تكذب إذا كذبت بالجزاء لأنّ كل مكذب بالحق فهو كاذب، فأي شيء يضطرك إلى أن تكون كاذبًا بسبب تكذيب الجزاء. والباء مثلها في قوله تعالى: ﴿الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾[1] والمعنى: أنّ خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشرًا سويًا وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر. لا ترى دليلاً أوضح منه على قدرة الخالق وأن من قدر من الإنسان على هذا كله لم يعجز عن إعادته، فما سبب تكذيبك أيها الإنسان بالجزاء بعد هذا الدليل القاطع. وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ.

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾.

﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما هم أهله. وعن النبي ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين[2]. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والتين أعطاه الله خصلتين العافية واليقين ما دام في دار الدنيا، وإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة العلق مكية

عن ابن عباس ومجاهد: هي أول سورة نزلت. وأكثر المفسرين على أنّ الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم.

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾.

محل ﴿باسم ربك﴾ النصب على الحال، أي: اقرأ مفتتحًا باسم ربك، قل بسم الله ثم اقرأ.

فإن قُلْتَ: كيف قال: ﴿خلق﴾ فلم يذكر له مفعولاً. ثم قال: ﴿خلق الإنسان﴾؟ **قُلْتُ:** هو على وجهين: إما أن لا يقدر له مفعول وأن يراد أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه، وإما أن يقدر ويراد خلق كل شيء فيتناول كل مخلوق لأنه مطلق فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض. وقوله: ﴿خلق الإنسان﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض. ويجوز أن يراد الذي خلق الإنسان، كما قال: ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان﴾[4] فقيل الذي خلق مبهمًا، ثم فسره بقوله خلق الإنسان تفخيمًا لخلق الإنسان ودلالةً على عجيب فطرته.

فإن قُلْتَ: لم قال: ﴿من علق﴾ على الجمع، وإنما خلق من علقة. كقوله: ﴿من نطفة﴾[5] ثم من علقة؟ **قُلْتُ:** لأنّ الإنسان في معنى الجمع. كقوله: ﴿إنّ الإنسان لفي خسر﴾[6].

ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾.

﴿الأكرم﴾ الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم ينعم على عباده النعم التي لا تحصى ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم. فما لكرمه غاية ولا أمد وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال: الأكرم.

ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾.

---

(1) سورة النمل، الآية: 100.
(2) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/510.
(3) ذكره الثعلبي والواحدي، وابن مردويه، زيلعي 4/243.
(4) سورة الرحمٰن، الآيات: 1 ـ 3.
(5) سورة النمل، الآية: 4.
(6) سورة العصر، الآية: 2.

﴿الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبّه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأوّلين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به. ولبعضهم في صفة القلم:

ورواقم[1] رفش كمثل أراقم قطف الخطا نيالة أقصى المدى
سواد القوائم ما يجد مسيرها إلا إذا لعبت بها بيض المدى

وقرأ ابن الزبير: علم الخط بالقلم.

كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾.

﴿كلا﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه.

أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾.

﴿أن رآه﴾ أن رأى نفسه. يقال في أفعال القلوب: رأيتني وعلمتني، وذلك بعض خصائصها، ومعنى الرؤية العلم، ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين و﴿استغنى﴾ هو المفعول الثاني.

إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾.

﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديدًا له وتحذيرًا من عاقبة الطغيان، والرجعى مصدر كالبشرى بمعنى الرجوع. وقيل: نزلت في أبي جهل.

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾.

وكذلك ﴿أرأيت الذي ينهى﴾ وروى أنه قال لرسول الله ﷺ: أتزعم أن من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهبًا لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك. فنزل جبريل فقال: إن شئت فعلنا ذلك ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة. فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء إبقاءً عليهم[2]. وروي عنه لعنه الله أنه قال: هل يغفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فوالذي يحلف به لئن رأيته توطأت عنقه. فجاءه ثم نكص على عقبيه. فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولاً وأجنحةً فنزلت: ﴿أرأيت الذي ينهى﴾ ومعناه: أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله، أو كان أمرًا بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد.

أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾.

وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما نقول نحن.

أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾.

﴿ألم يعلم بأنّ الله يرى﴾ ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب ذلك وهذا وعيد.

فإن قُلْتَ: ما متعلق أرأيت؟ **قُلْتُ:** الذي ينهى مع الجملة الشرطية وهما في موضع المفعولين.

فإن قُلْتَ: فأين جواب الشرط؟ **قُلْتُ:** هو محذوف تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى وإنما حذف لدلالة نكره في جواب الشرط الثاني.

فإن قُلْتَ: فكيف صح أن يكون ألم يعلم جوابًا للشرط؟ **قُلْتُ:** كما صح في قولك: إن أكرمتك أتكرمني. وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه؟

فإن قُلْتَ: فما أرأيت الثانية وتوسطها بين مفعول أرأيت! **قُلْتُ:** هي زائدة مكررة للتوكيد. وعن الحسن أنه أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة.

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾.

﴿كلا﴾ ردع لأبي جهل وخسوء له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات. ثم قال: ﴿لئن لم ينته﴾ عما هو فيه ﴿لنسفعًا بالناصية﴾ لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار. والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة. قال عمرو بن معدي كرب:

قوم إذا يقع الصريخ رأيتهم من بين ملجم مهره أو سافع

وقرئ: لنسفعنّ بالنون المشدّدة. وقرأ ابن مسعود: لأسفعًا. وكتبتها في المصحف بالألف على حكم الوقف ولما علم أنها ناصية المذكور اكتفى بلام العهد عن الإضافة.

نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾.

﴿ناصية﴾ بدل من الناصية وجاز بدلها عن المعرفة وهي نكرة لأنها وصفت فاستقلت بفائدة. وقرئ: ناصية على هي ناصية، وناصية بالنصب وكلاهما على الشتم. ووصفها بالكذب والخطأ على الإسناد المجازي وهما في الحقيقة لصاحبها، وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطىء.

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾.

والنادي المجلس الذي ينتدى فيه القوم، أي: يجتمعون، والمراد أهل النادي. كما قال جرير:

---

(1) رواقم: من الرَّقم أي الكتابة. أراقم جمع رقم، وهي الحية التي على ظهرها نقش.

(2) قال الزيلعي: لم أجده. وقال ابن حجر: وآخره تقدم في الإسراء بغير هذا السياق.

لهم مجلس صهب السبال أثلة

وقال زهير:

وفيهم مقامات حسان وجوههم

والمقامة: المجلس. روي أنّ أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألم أنهك. فأغلظ له رسول الله ﷺ فقال: أتهدّدني وأنا أكثر أهل الوادي ناديًا فنزلت[1]. وقرأ ابن أبي عبلة: سيدعى الزبانية على البناء للمفعول.

سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾.

والزبانية في كلام العرب: الشرط. الواحد: زبنية كعفرية من الزبن وهو الدفع. وقيل: زبني وكأنه نسب إلى الزبن ثم غير للنسب كقولهم: إمسى وأصله زباني. فقيل: زبانية على التعويض، والمراد ملائكة العذاب. وعن النبي ﷺ: «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عيانًا»[2].

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾.

﴿كلا﴾ ردع لأبي جهل ﴿لا تطعه﴾ أي: اثبت على ما أنت عليه من عصيانه. كقوله: ﴿فلا تطع المكذبين﴾[3] ﴿واسجد﴾ ودم على سجودك يريد الصلاة، ﴿واقترب﴾ وتقرّب إلى ربك. وفي الحديث أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد[4] عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة العلق أعطي من الأجر كأنما قرأ المفصل كله»[5].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القدر مختلف فيها

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾.

عظم القرآن من ثلاثة أوجه: أحدها أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصًا به دون غيره، والثاني أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادةً له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه، والثالث الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه. روي أنه أنزل جملةً واحدةً في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا وأملاه جبريل على السفرة، ثم كان ينزله على رسول الله ﷺ نجومًا في ثلاث وعشرين سنة. وعن الشعبي: المعنى: إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر. واختلفوا في وقتها فأكثرهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها، وأكثر القول أنها السابعة منها. ولعل الداعي إلى إخفائها أن يحيي من يريدها الليالي الكثيرة طلبًا لموافقتها فتكثر عبادته ويتضاعف ثوابه، وأن لا يتكل الناس عند إظهارها على إصابة الفضل فيها فيفرطوا في غيرها. ومعنى ليلة القدر ليلة تقدير الأمور وقضائها. من قوله تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾[6] وقيل: سميت بذلك لخطرها وشرفها على سائر الليالي.

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾.

﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ يعني: ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها.

لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾.

ثم بيّن ذلك بأنها خير من ألف شهر، وسبب ارتقاء فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من المصالح الدينية التي ذكرها من تنزل الملائكة والروح، وفصل كل أمر حكيم ونكر في تخصيص هذه المدّة أنّ رسول الله ﷺ نكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المؤمنون من ذلك وتقاصرت إليهم أعمالهم فأعطوا ليلة هي خير من مدّة ذلك الغازي[7]. وقيل: إنّ الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله ألف شهر، فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد.

تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾.

﴿تنزل﴾ إلى السماء الدنيا. وقيل: إلى الأرض، ﴿والروح﴾ جبريل. وقيل: خلق من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة. ﴿من كل أمر﴾ أي: تتنزل من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل. وقرئ: من كل امرئ أي: من أجل كل إنسان. قيل: لا يلقون مؤمنًا ولا مؤمنةً إلا سلموا عليه في تلك الليلة.

سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾.

﴿سلام هي﴾ ما هي إلا سلامة. أي: لا يقدّر الله فيها إلا السلامة والخير، ويقضي في غيرها بلاء وسلامة، أو ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلمون على المؤمنين. وقرئ: مطلع بفتح اللام وكسرها. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القدر أعطي من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر»[8].

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة ﴿اقرأ﴾ (الحديث رقم: 3349).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير ومن سورة: «اقرأ»، باب: ﴿كلا لئن لم ينته﴾ (الحديث رقم: 4958).

(3) سورة القلم، الآية: 8.

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع...= (الحديث رقم: 215 ـ 482).

(5) ذكره الثعلبي في تفسيره وابن مردويه والواحدي، زيلعي 4/ 249 ـ 250).

(6) سورة الدخان، الآية: 4.

(7) ذكره الواحدي في أسباب النزول، ص 255.

(8) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي، زيلعي 4/ 253 ـ 254.